

¹Semiology of El Quds in the Contemporary Arabic Poetry

*Azzouz Karboua

Université de 20 août 1955, Sikikda, Algeria

azuz.k21@gmail.com

Arrival date: 2017-07-04 Acceptance date: 2017-12-29

Abstract

Poetic discourse has since ever been a kind of whisper that draws our world and discovers our real life and describes our feelings. It travels to the metaphysics of the human existence to ask knowledgeable and existential questions and feels the breaches of the society and digs in the human contradictions.

The poetic discourse is a stream that can't be conjured and flirted with but for a transparent being that makes of our properties jewelry and reorder things in a ways that leaves us astonished and marveled so it is the golden medium that gives us life and shakes our beliefs. It lets you think about yourself so as to build a new relationship with our surrounding.

Poetry taught us that our negative experiences could bear a positive message when it slaps to awake us to revise ourselves and free the hidden energy in us because of fear and illusion. Poetry is a great means that lets us think, feel and assimilate in a pleasurable way even when it beats us; because it puts us elegantly in front of problems that exhaust us and we couldn't explain.

Why does poetry do all that to us? ... It does it with its imaginary surprises, with its signifying complexities, symbols, tempo, and with its dramatic energy that tell sufferings and weaknesses of the human being. Yes the human soul's sufferings are what makes this sensitive being whispers sometimes and explodes some other times and pushes us to follow it and swim in its universe.

Loss is one of the most painful and aching feelings; so lover cries his love and the son cries his parents, and parents cry their children and so on, However, the loss of one's motherland is more painful and more aching ... as the Arabic proverb says: "he who loses gold, in the gold market he can find it and he who loses a lover maybe a year and he will forget and he who loses a motherland where is he supposed to find it"

The place where to live (mother country) couldn't be expelled from the interest of poets and writers. In this scope we can find a lot of contemporary works of literature that glorifies the motherland or cries it for being far from it or because of losing it.

It is difficult to researchers to find a motherland that has been written about and glorified or cried like the Arabs did with El Quds which became an icon mainly for Arabs. Geographically speaking, el Quds has become a religious, a historical, a sociological and a political symbol...etc

This study aims at getting closer to some contemporary Arabic poems that made of El Quds a subject to write about to reveal our pains, aches and expectations. Some of these poems are by *Nizar Kabani*, *Tamim El Barghouti*, *Mahmoud Darwiche*...etc adopting a methodology that enables us to deal with El Quds in the poetic discourse in a way that leads us to extract many significances relying on the semiotic that seeks into the significance and its production and the means used to reach it.

Keywords: Semiology of El Quds, Contemporary Arabic Poetry, To lose the motherland

¹ This paper is an enlarged version of the text presented in the "Jerusalem Symposium in Modern World Literature" held at the University of Jordan from 21-23 March 2017.

* Corresponding author: Université de 20 août 1955, azuz.k21@gmail.com, Sikikda, Algeria.

دلالة القدس في الشعر العربي المعاصر

أ.د/ عزوز قريوع

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة – الجزائر –

البريد الإلكتروني: azzouz.k21@gmail.com

ملخص مداخلة:

و الوالدان يبكيان ولدهما و هكذا ؛ إلا أن فقد الوطن أكثر قسوة و أعمق جرحا، و صدق من قال " لي مضيق ذهب في سوق الذهب يلقاه، و لي مفارق محب يمكن سنة و ينساه، و لي مضيق وطن و بين الوطن يلقاه ... "2

ما كان لهته التيمة (المكان / الوطن) أن تكون بمنأى عن تناول الأديباء و الشعراء لها، ففي هذا السياق تطالعنا نصوص أدبية معاصرة، تغنى بعضها بالوطن، و بكى بعضها ضياعه و البعد عنه .

يصعب على أي باحث أن يجد مدينة أو مكانا أو وطناً أُحْفِيَّ به كاحتفاء الأديباء العرب المعاصرين بالقدس، فقد أضحت هذه الأخيرة أيقونة تفعل فعلتها في الوجدان – لا سيما – العربي.

فالقدس كفضاء جغرافي (مدينة / مكان)، ارتقت مع الزمن لتصبح رمزا متشعبا له دلالات دينية و تاريخية و اجتماعية و سياسية... إلخ

في هذه الأجواء تسعى هذه الدراسة – إن شاء الله – للاقترب من نصوص شعرية عربية معاصرة، اتخذت من القدس موضوعا لها، أو لنقل مرتكزا لفضح الآمنا و هزائمنا و تطلعاتنا، و لتكن بعض هذه النصوص لنزار قباني و بعضها لتميم البرغوثي و الأخرى لمحمود درويش... إلخ، معتمدين في ذلك على منهجية ترمي للتعامل مع القدس في الخطاب الشعري كمؤشر يحيلنا على دلالات متنوعة، نستهدف تكشيفها انطلاقا من تبني المقاربة السيميائية التي تبحث في الدلالة و كيفية إنتاجها

ظل الخطاب الشعري منذ الأزل همسا يصور عوالمنا، و يكشف واقعنا، ويعبر عن أعماقنا، يرتحل إلى ميثا فيزياء الكيان الإنساني، لي طرح تساؤلات معرفية و وجودية، ويتحسس تصدعات المجتمع و يحفر في تناقضات البشر.

الخطاب الشعري فيض لا يحسن استحضاره و مغالته إلا كائن شفاف يصنع من موجوداتنا جواهر، و يعيد ترتيب أشياءنا بطريقة تجعلنا لا نكف عن النظر إلى هذا الفن بكل دهشة و إعجاب، فهو الوسيط الذهبي الذي يبعث الحياة في زوايا أفئدتنا، يخلخل معتقداتنا الاجتماعية و مسلماتنا، و يجعلنا نلتفت إلى ذواتنا و نعيد بناء علاقة جديدة مع واقعنا، الشعر علمنا أن تجاربنا السلبية قد يكون لها طابعها الإيجابي، حينما تصدمنا فنستفيق من غيبوبتنا و نراجع حساباتنا، و من ثم تحرير طاقاتنا المدفونة بفعل الخوف و الوهم و الدعاية.

الشعر جهاز لغوي جبار يجعلنا نفكر و نحس و نستوعب بلذة لا تضاهيها أي لذة، حتى حينما يجلدنا لأنه يضعنا بكل رقي أمام مشكلات أرققتنا و لم نجد لفهما أي طريق و أي تفسير.

لماذا يصنع الشعر بنا كل هذا ... يصنع هذا بمفاجاته التخيلية، بتعقيداته الدلالية، برموزه، بإيقاعه، و بشحنته الدرامية التي تحكي عذابات و هموم الذات الإنسانية .

نعم عذابات الذات الإنسانية هي التي تجعل هذا الكائن الحساس يهمس أحيانا و ينفجر أحيانا أخرى، و تدفعنا إلى التماهي معه و التحليق في فضاءاته.

الفقد أكثر المشاعر الإنسانية إيلاما و قسوة، فالحبيب يبكي حبيبه و الابن يبكي والديه،

(2) - موال عراقي و البعض يقول أنه موال فلسطيني.

و بغض النظر عن أول من باشر الكتابة حول القدس، فقد تضاربت الآراء حول هذه المسألة حيث رأى كل من تناول هذا الموضوع رأياً تأسس على ما هو متاح من معطيات (*).

سجل المتتبعون لخصوصيات الكتابة – لا سيما – الشعرية المتمحورة حول القدس، ميلها – بعد النكسة – إلى الحس التراجيدي، فاحتلال القدس شكل صدمة مباغته " قاسية على الشعراء والشعر العربي الحديث، وقد أثرت تأثيراً بالغاً في سيرورته واتجاهه وبنيته في آن معاً، ويمكن أن ندعي بأن الصرخة الملحمية التي تجلت في شعر ما قبل النكبة، وكانت موجّهة إلى استنهاض الهمم للقضاء على الغرباء، قد تحوّلت إلى صرخة أليمة حادة وزفرة رومانسية حارقة اتجهت إلى الداخل، ولاسيما بعد النكسة وفقد الشعراء الأمل إلى حدّ كبير بالبطل الملحمي، وحلّ محلّه البطل التراجيدي الذي استيقظ من أحلامه الوردية على واقع راعب، وحلّ القلق محل الاطمئنان واليقين، كما حلّت الرومانسية الدامعة محلّ الكلاسيكية الهادئة "4. يمثل نزار قباني هذا الحس إذ يعبر بنبرة حزينة عن الواقع الذي فرض على مدينة القدس حيث ترددت كلمات ينتمي جميعها إلى حقل دلالي واحد وهو حقل الحزن و الأسى، لقد تواترت

و الوسائط العلاماتية التي تستغل في سبيل بلوغها...

عتبة الكلام:

ليس من غرض هذه الدراسة أن تبحث في تاريخ القدس و مكانتها و أهميتها، كما أنه ليس من غرضها الوقوف عند الأحداث الجسام التي مرت عليها و جحافل الغزاة الذين بذلوا وسعهم للاستحواذ عليها، فإن في ذلك مؤلفات عديدة و بحوث كثيرة استقصت كل ذلك بكل دقة وتفصيل. (*) " إن مشكلة القدس مختلفة عن مشكلة أيّ مدينة أخرى في العالم، وهي معقّدة الخيوط، فعلى الرغم من صغرها نسبياً بين المدن الكبيرة في العالم غير أنها تعجّ بالأمكان المقدّسة عند أصحاب الديانات الثلاث، ولهذه الأماكن ذاكرة تاريخية تزيدها قداسة، ككنيسة القيامة والمسجد الأقصى وسواهما، وقد ذكر هذه الأماكن ووصفها وصفاً دقيقاً عارف العارف وسمير جريس"3.

سبقت الإشارة إلى أنه لا توجد مدينة أحتفي بها كاحتفاء الكتاب و الفنانين بالقدس، حيث اتخذت مرتكزا لنصوص سردية و شعرية كثيرة.

إلا أن اللافت للنظر أن اتخاذ القدس كتيمة مركزية في الإبداعات الفنية لم يكن بهذا الوضوح إلا بعد النكسة سنة 1967، أين تمكن الاحتلال الصهيوني من بسط نفوذه على مدينة القدس و الاستحواذ عليها.

(*) - أهمل د. موسى قصيدة راشد حسين "أورشليم"، كما أنه لم يلتفت، مثله مثل الخياص، إلى قصيدة محمود درويش "تحت الشبايبك العتيقة" وهكذا توصل إلى نتائج، حول بدايات قصيدة القدس، غير دقيقة. لقد ذهب د. موسى إلى أن أغنية فيروز التي كتبها الأخوان رحباني هي المشرع الأول لقصيدة القدس تلتها قصيدة نزار قباني "القدس". لقد كتب درويش قصيدته إثر هزيمة حزيران 1967، حين زار أيضا القدس المحتلة، وهذان اسبق من الشاعر الفلسطيني أديب رفيق محمود ابن عنبّا الذي بدأ القصيدة الأولى عن القدس، كما يذهب د. موسى، انظر: عادل الأسطة: القدس في الشعر العربي المعاصر، ص: 84

4 - خليل موسى: القدس في مدونة الشعر العربي الحديث، ص: 475 - 476

(*) - العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 3، 200، جريس، سمير: القدس - المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط 1، 1981.... إلخ

3 - انظر: العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 3، 2005، ص: 715 - 774 و جريس، سمير: القدس - المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط 1، 1981، ص 204-181، والموسى، خليل: القدس في مدونة الشعر العربي الحديث.

بكيته، صليت، حزينة عيناك، يا جميلة تلتف بالسواد، يا مدينة الأحران، يا دمة كبيرة تجول في الأجان، امتزجت مشاعر نزار هنا بين إظهاره للعشق الذي يختص به القدس / فلسطين، وبين الألم الذي يعترضه نتيجة ما تعانيه القدس وأهلها من ظلم و اضطهاد و تطاول على كل ما هو مقدس و تاريخي فيها.

أما الحنين و النفور فمثله تميم البرغوثي في قصيدة القدس من خلال المعجم اللغوي الذي تبناه أو بالأحرى الذي فرض نفسه على الشاعر المأزوم نفسياً، إذ ألفينا نصه يطفح بالأبعاد النفسية السابقة من خلال شفرات لغوية شكلت أسطراً شعرية كاملة من قبيل :

مَرَرْنَا عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَرَدْنَا
عَنِ الدَّارِ قَانُونَ الأَعَادِي وَسُورُهَا
فَقُلْتُ لِنَفْسِي رُبَّمَا هِيَ نَعْمَةٌ
فَمَاذَا تَرَى فِي الْقُدْسِ حِينَ تَرُورُهَا
تَرَى كُلَّ مَا لَا تَسْتَطِيعُ احْتِمَالُهُ

وما كل نفس حين تلقى حبيبها تُسرُّ
ولا كل الغياب يُضيرُها
فإن سرَّها قبل الفراق لِقَاؤُهُ
فليس بمأمونٍ عليها سرورُها⁽⁶⁾
1. استحضار المكان / ميثاق الانتماء:

لا يخفى على أحد أن الخطابات الأدبية يُستند في جانب منها إلى الفضاء الجغرافي، فلا يخلو أي نص من استغلال المكان كمرجعية و أساس فني ذلك أن "كل مكان يحمل تاريخاً .
ومن البديهي أن الإنسان لا يرث في المكان ما يمثله من ظرف فقط، بل يرث كذلك هذا التاريخ الذي يلف، ولا تتساوى في هذا الإرث كل أقسام المكان بل تتفاوت وتتفاضل على أساس ما اضطلعت به من مهمات وما شاهدته من أحداث تختلف قدراً وقيمة"⁷.

مثلاً كلمة "حزينة" ثلاث مرات و الأحران مرة واحدة يقول⁵:

حزينة عيناك، يا مدينة البتول

...

حزينة حجارة الشوارع
حزينة مآذن الجوامع

....

يا قدس، يا مدينة الأحران
كما حظرت الدموع في موضعين، مرة بصيغة الجمع وأخرى بصيغة المفرد يقول :

بكيته.. حتى انتهت الدموع

...

يا دمة كبيرة تجول في الأجان

و لفظة السواد مرة واحدة في قوله :

يا قدس، يا جميلة تلتف بالسواد

كما تواترت مؤشرات لغوية تعبر عن الموت كالقتل و الدماء

ورد المؤشر الأول في قوله :

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟

أما المؤشر الثاني فجاء في السطر الشعري الذي يقول فيه:

من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟

الملاحظ فيما سبق أن الإطار العام لنص نزار ملفوف في أغلب مراحلها بالإحباط و الأنين نتيجة ما تعرضت له و تتعرض له مدينة السلام، التي لم تعد كذلك مذ وطأتها أقدام الغزاة الذين تقاطروا عليها من كل حذب و صوب.

التجليات النفسية تلونت عند نزار و عند غيره بمشاعر و أحاسيس توزعت على تيمات سيكولوجية كالعشق و الرثاء كما تبدى في الأسطر الشعرية السابقة من خلال مؤشرات لسانية ك: يا جميلة، يا منارة الشرائع، يا واحة ظليلة، يا لؤلؤة، يامدينتي، يا حبيبتني، يا بلدي، يا بلد السلام والزيتون....

6 - تميم البرغوثي : قصيدة في القدس، ديوان في القدس، دار الشروق، القاهرة، 2009 .

7 - عبد الصمد زايد :المكان في الرواية العربية " الصورة والدلالة." دار محمد علي للنشر، تونس، ط 133، 01 ص 2003 .

5 - نزار قباني: قصيدة القدس، الأعمال الشعرية الكاملة (3)، منشورات نزار قباني، بيروت، د.ت، ص 163.

حوارية مع الشاعر، بعدما يؤخذ هذا الأخير بالواقع الذي فرض على القدس، بعدما تطلعت نفسه إلى المرور على دار الحبيب "القدس"، أدرك أن ألم الفراق أخف وطأة عليه من صدمة اللقاء، فقد تبدل الحال غير الحال، وتغيرت الوجوه، و فقدت القدس لونها و شكلها و عبقها القديم، يقول:

مَرَرْنَا عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَرَدْنَا
عَنِ الدَّارِ قَانُونَ الأَعَادِي وَسُورُهَا
فَقُلْتُ لِنَفْسِي رُبَّمَا هِيَ نِعْمَةٌ
فَمَاذَا تَرَى فِي الْقُدْسِ حِينَ تَرُورُهَا
تَرَى كُلَّ مَا لَا تَسْتَطِيعُ احْتِمَالَهُ
إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ جَانِبِ الدَّرْبِ دُورُهَا
وَمَا كُلُّ نَفْسٍ حِينَ تَلْقَى حَبِيبَهَا تُسَرُّ
وَلَا كُلُّ الْغِيَابِ يُضِيرُهَا
فَإِنْ سَرَّهَا قَبْلَ الْفِرَاقِ لِقَاؤُهُ
فَلَيْسَ بِمَأْمُونٍ عَلَيْهَا سُرُورُهَا
مَتَى تُبْصِرَ الْقُدْسَ الْعَتِيقَةَ مَرَّةً
فَسَوْفَ تَرَاهَا الْعَيْنُ حَيْثُ تُدِيرُهَا

في القدس، بائع خضرة من جورجيا برم بزوجته
يفكر في قضاء إجازة أو في في طلاء البيت
في القدس، توراة وكهل جاء من منهنات العليا
يُفَقِّهُ فِتْيَةَ البُولُونِ فِي أَحْكَامِهَا
في القدس شرطي من الأحباش يُغْلِقُ شَارِعاً فِي
السوق..

رَشَّاشٌ عَلَى مَسْتَوِطٍ لَمْ يَبْلُغِ العَشْرِينَ،
فُتْبَعَةٌ تُحْيِي حَائِطَ المَبْكِي
وسياح من الإفرنج سُفَّرَ لَا يَرُونَ الْقُدْسَ إِطْلَاقاً

في القدس دَبَّ الجندُ مُنْتَعِلِينَ فَوْقَ الغَيْمِ¹⁰

لقد تبدلت تفاصيل القدس بفعل زوائد هي سبب النكبة وعذابات أهلها، إنها تجليات فقد الوطن و خسارته و سيطرة الغرباء عليه، تميم كشاعر تقمص دور المصور و راح يصور مشاهد و يكتفها دلاليا لتظهر حجم المأساة و الضيم الذي.. لا تستطيع احتيماله، هناك مشهد لـ بائع خضرة من جورجيا، و آخر لـ كهل جاء من

إن هذا النزوع أو لنقل هذه الحتمية " الزمكنة" التي لا ينفك الكتاب و المبدعون يعولون عليها، إنما هي في حقيقتها تعكس جدلية الذاتي و الموضوعي، الراهن و الماضي، فمن خلالها يتسنى بلوغ " أعماق التاريخ ليلتحموا به في تجربة ذاتية كلية عبر الوجداني و المتخيل، و ليستلهموا منه الرموز و الصور التي تحضر في النص، ضمن منطوق عضوي يأخذ فيه هذا التاريخ صيغة جديدة، مفعمة بالإيحاء و التصوير، مشبعة بالرمزية المتفتحة على القراءات المتعددة..."⁸

هذا ما تبدى في نص " القدس" لنزار قباني، الذي بدا كيكائية طرح فيها تساؤلات مفخخة تثير الوعي و تقحم القارئ في متاهات متضاربة تؤول في نهاية المطاف إلى محاولة لفت الانتباه إلى النتيجة لدفعنا إلى البحث عن السبب، لأننا حينما نعرف نستطيع يقول :

بكيت.. حتى انتهت الدموع
صليت.. حتى ذابت الشموع
ركعت.. حتى ملني الركوع
سألت عن محمد، فيك و عن يسوع

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة؟
صبيحة الأحاد..
من يحمل الألعاب للأولاد؟
في ليلة الميلاد..

من يوقف العدوان؟
عليك، يا لؤلؤة الأديان
من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟
من ينقذ الإنجيل؟
من ينقذ القرآن؟
من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟⁹

يلعب التاريخ في قصيدة " القدس" لتميم البرغوثي دور المعلم و المرشد و يدخل في

8 - إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي الجزائري نموذجاً 1925 - 1962، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ط1، 1997، ص: 269.

9 - نزار قباني : قصيدة القدس (مصدر سابق) .

10 - تميم البرغوثي : قصيدة في القدس .

و كذلك يفعل " نزار " مع شخصيات دينية /
تاريخية، كالنبي محمد (ص) و المسيح عليه
السلام، يقول:

سألت عن محمد، فيك وعن يسوع

يا واحةً ظليلةً مر بها الرسول

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟¹³

أما "محمود درويش فيشير في.
قصيدة القدس إلى كون مدينة السلام هي أرض
الأنبياء على مر التاريخ يقول:

.....فإن الأنبياء هناك يقتسمون
تاريخ المقدس... يصعدون إلى السماء
ويرجعون أقل إحباطاً وحنناً، فالمحبة
والسلام مُقدَّسان وقادمان إلى المدينة.¹⁴

الشعراء باستحضارهم لهذه الشخصيات،
يؤكدون من خلالها بطريقة إيحائية، من هم
أصحاب الأرض ومن الأولى بها، ومن جهة
ثانية نداء مقتع بإمكانية عودة تلك الأرض إلى
أصحابها، إذا سلك الخلف سبيل الأسلاف الأبعد
و الأقارب.

لقد " وظّف الشعراء المعاصرون
أسماء أشخاص تحمل بعدا دينيا أو تاريخيا في
قصائدهم التي تخص القدس، قاصدين بذلك
إبراز الأهمية الدينية التي حُصت بها في الكتب
السماوية، وإقامة الأنبياء على أرضها أو
مرورهم بها، وإظهار الحق الفلسطيني التاريخي
قديمًا وحاضرًا ومستقبلاً، وتقنيد المزاعم
الصهيونية من أصولها.

لعل حادثة الإسراء والمعراج تعدّ
الحادثة الأهمّ على أرض بيت المقدس والتي
لقتت أنظار المسلمين في شتى أنحاء العالم
لتصبح القبلّة الأولى لهم قبل تحويلها إلى الكعبة

13 - نزار قباني: قصيدة القدس(سابق).

14 - محمود درويش: قصيدة في القدس، ديوان لا تعنذر
عمّا فعلت، دار رياض الريس للكتب و النشر، بيروت،

ط2، 2004، ص: 47- 48

منهاتين الغلبا، و ثالث لـ شرطي من الأحباش، و
رابع لـ قُبعة تُحَيّ حائط المبكى، إنه الطوفان و
كأن هؤلاء سيل أمطره الغيم، لقد دبّ الجندُ
مُنْتَعِلِينَ فوقَ الغيم.

يلق التاريخ الذي صوره " تميم " كرجل حكيم
عليم يقول:

وَتَلَقَّتْ التَّارِيخُ لِي مُتَبَسِّمًا

أظننتَ حقاً أنّ عينك سوف تخطئهم! وتبصر

غيرهم

ها هم أمامك، مثنى نصّ أنت حاشيةً عليه وَهَامَشْ
أحسبت أنّ زيارةً سنزّيح عن وجه المدينة، يا
بنيّ، حجاب واقعها السميك

لكي ترى فيها هوائك

في القدس كلّ فتى سواك

وهي الغزاة في المدى، حكّم الزمان بيئتها

ما زلت تركزض إثرها مُدّ ودَعَتَكَ بعينها

رفقاً بنفسك ساعةً إنّي أراك وَهَنْتُ

في القدس من في القدس إلا أنت¹¹

يبدو مما تقدم أن القدس كفضاء جغرافي
لا يمكنه الفكك مما جرى و يجري فيه من
أحداث و ملمات، فمرايا التاريخ تقارب الواقع
في ضوء ما كان بطريقة ديناميكية يتداخل
عبرها الماضي بالحاضر، ويتعفر فيها المكان
بالتاريخ.

يستحضر " تميم " شخصية الظاهر ببيرس الذي
ارتبط اسمه بالبطولة و قهر الغزاة، ولمح إليه
ببعض سماته فيقول:

في القدس مدرسةً لمملوك أتى مما وراء النهر،

باعوه بسوقٍ نخاسةً في أصفهان لتاجرٍ من أهل

بغداد

أتى حلباً فخاف أميرها من رزقةٍ في عينه

اليسرى،

فأعطاه لقالفةً أتت مصرأ

فأصبح بعد بضع سنين غلاب المغول وصاحب

السلطان¹²

11 - نفسه.

12 - تميم البرغوثي: قصيدة في القدس.

إلى مصدر للضجر و الضيق فيقترب بذلك في دلالاته من المكان الداخلي/المغلق.¹⁷

17- ينظر: جاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا بغداد 1980 ص: 45
المكان كما تقول أن شكمان "مساحة ذات أبعاد هندسية أو طوبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم" وهذا التعريف لا ينطبق تماماً على ماهية المكان وفقاً للرؤية الأدبية، التي اختلف الباحثون أيضاً في تحديدها تحديداً دقيقاً.

تقول سيزا قاسم: المكان " هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث" وهو تعريف واضح ومحدد لطبيعة المكان إلا أنها تغفل الإشارة إلى طبيعة هذا الإطار ومكوناته في صياغة عنوانها على الرغم من أنها في أثناء معالجاتها الإجرائية لا تغفلها إذ استوفت أطر المكان وانعكاساته الزمنية والنفسية والتاريخية وغيرها.

إن الأبعاد الهندسية التي تحدثت عنها شكمان ما كان لها أثرها الفني الفاعل ما لم يعد المبدع الأديب صياغتها وفقاً لرؤيته الأدبية وعلى هذا فالمكان في الأدب تشكيل رؤيوي وليس مساحة ذات أبعاد هندسية، ولهذا يصبح المكان " جزءاً من التجربة الذاتية بعد أن يفقد صفاته الواقعية ارتباطاً باللحظة النفسية... "

ينظر : علي متعب جاسم و منى شفيق توفيق:فاعلية المكان في الصورة الشعرية سيفيات المتنبّي أنموذجاً، مجلة ديالى، العدد الأربعون، 2009 .

حدد ميخائيل باختين " bakhtine " أربعة أنواع للمكان وأعطى لكل منها اسماً خاصاً بحسب دوره في الرواية وهو المكان الداخلي، المكان الخارجي، المكان المعادي، وأطلق على الرابع فضاء العتبية وهو المكان الذي يكون ممراً للبطل عبر تنقلاته، كما أنه يتمثل في الأبواب، النوافذ، الحافلات، والسيارات والبواخر، ويريد " باختين " بالمكان الخارجي، المكان المفتوح، الذي يخرج عن نطاق غرفة في مقابل البلد والبلد الأصلي في قابل بلد الغربية، وهو مكان رحب وواسع، غالباً ما نجد الفرد يتفاعل معه ايجابياً، أما المكان الداخلي فهو المكان المعاكس للمكان الخارجي، يمثل الانسداد والانغلاق، كما أنه يتصف بالتحديد، وهذا لا ينفي انفتاحه على أمكنة أخرى، فالغرفة المحددة مساحتها، قد تنقلنا عبر جدرانها إلى عوالم أمكنة عديدة، من خلال أثاثها أو رسوماتها أو المجسمات التي تحويها وبالتالي تعطيها دلالة تفوق دلالاتها الأولى، انظر: كلثوم مدقن: دلالة المكان في رواية موسم الهجرة إلى الشمال " للطبيب صالح"، مجلة الأثر، جامعة ورقلة – الجزائر – العدد الرابع، ماي 2005، ص: 141.

المشرفة، كما أنّ قدسية هذه البقعة نابغة من رسالة التوحيد ومن تشریف الأنبياء لهذه البقعة على مرّ التاريخ..."¹⁵

إن إقحام اسمي "محمد" و المسيح في هذه النصوص يوحي بدلالة دينية، و يؤسس لحقيقة تاريخية ألمحنا إليها سابقاً، أما الشخصيات التاريخية فهي رمز البطولة التي ارتبطت باسترجاع الحق المسلوب و العدالة المهذورة .

هذا النسق يؤكد ضمناً أن النص الشعري وليد شرطيه التاريخي و الديني- في مطلق الأحوال -ينطلق منهما ليعبر عنهما معاً، وكل نص يسعى إلى الارتباط بالجزور، و الارتكاز على الماضي و الحاضر، حيث يحاول الشاعر من خلاله أن يتمثل الرؤيا الحضارية للأمة، فتاريخ الشعر هو تاريخ المكان، و مرجعية النص في أغلب الأحيان مرجعية تاريخية، إضافة إلى المرجعيات الأسلوبية فكل هذه المرجعيات – بتفاوت – تدعم دلالة وجمالية النص الشعري المتجدد في الزمان و المكان. فالعودة إلى التاريخ، ليس المقصود منها إعادة كتابة هذا التاريخ بأحداثه ووقائعه الحرفية، فهذا ليس عمل الشاعر، و إنما إعادة قراءة هذا التاريخ و الواقع برؤية مختلفة.¹⁶

2. فضاء القدس و المكان المعادي:

المكان المعادي يأتي عند النقاد كمقابل للمكان الأليف، ويرى هؤلاء أن الأساس الذي يحدد طبيعة المكان بالاعتبارين السابقين، هو البعد النفسي فما يعبر عادة عن الألفة كالببيت والوطن- رغم اتساعه - قد ينقلب عند البعض

15 - رضا علي محمد لدادوة، القدس في الشعر الفلسطيني المعاصر (2004-1967)، رسالة ماجستير، جامعة بير زيت – فلسطين -، 2005 ص: 109-116

16 -محمد الصالح خرفي: جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة – الجزائر – 2005، ص : 150-151

المركز و بعدها فرضوا منطقهم على أصحاب الحق .

يجسد الشاعر " محمود درويش " الضجر و الاغتراب من خلال مؤشر السور و فقدان معالم الذاكرة و التاريخ فيقول:

في القدس، أعني داخل السور القديم،
أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى
تصوبيني. فإن الأنبياء هنا يفتسمون
تاريخ المقدس... يصعدون إلى السماء
ويرجعون أقل إحباطاً و حزناً، فالمحبة،
و السلام مقدسان وقادمان إلى المدينة¹⁹

أما نزار قباني فيؤطر فضائه النصي الشعور بالتأزم و التوتر يتجلى ذلك من خلال تلك النداءات المنكررة التي يردفها بتوصيف حال القدس التي يطبعها الظلم و يلفها الحزن يقول:

يا طفلةً جميلةً محروقة الأصابع
حزينةً عيناك، يا مدينة البتول
يا واحةً ظليلةً مر بها الرسول
حزينةً حجارة الشوارع
حزينةً مآذن الجوامع

يا قدس، يا جميلة تلتف بالسواد²⁰
الأسئلة المحرجة و المصيرية تختبئ
وراء هذه النداءات المفخخة، القدس شوارع و
حجارة و مساجد و.. إلخ لا تنادي و لا تنادي،
إنها صرخات لمن يهمله أمرها، إنها صرخات
لمن كان يصلي إليها و لمن كان يحج إليها.

لسان حال هؤلاء الشعراء و غيرهم ممن
كتبوا عن القدس و رثوا حالها و حالهم، يلخصه
الشاعر عبد الرحمن الزهراني حينما قال :

ويقرأ الناس أحرفنا فتعجبهم و يحسبون بأن
الحزن إبداع
سيشهد الحرف أن الحبر أدمعنا لو يعلمون و أن
السطر أوجاع
البوح فيض من الآلام لو حبست تهشمت من
أزيز الصدر أضلاع

تتردد هذه الدلالات في تضاعيف نص تميم البرغوثي، إذ يعبر عن ذلك أحياناً بطريقة مباشرة تعتمد السرد و الوصف، وأحياناً أخرى يتبنى الإيحاء و التلميح، كما هو الحال في الأسطر الشعرية التي يقول فيها :

مررنا على دار الحبيب فردنا
عن الدار قانون الأعادي وسورها
فقلْتُ لنفسي ربما هي نعمة
فماذا ترى في القدس حين تزورها
ترى كل ما لا تستطيع احتمالهُ

.....
في القدس صائناً على الإسفلت

.....
وتلقت التاريخ لي متبسمًا
أظننت حقاً أن عينك سوف تخطهم،! وتبصر
غيرهم
ها هم أمامك، مثن نصن أنت حاشيةً عليه وهامش
أحسبت أن زيارة ستزيح عن وجه المدينة، يا
بني، حجاب واقعها السميك

.....
كانوا الهوامش في الكتاب فأصبحوا نص المدينة
قبلنا

.....
في القدس يرتاح التناقض،
والعجائب ليس ينكرها العباد،
كأنها قطع القماش يقبلون قديمها و جديدها،
والمعجزات هناك تلمس باليدين¹⁸

تعكس هذه الأسطر الشعرية دلالة نفسية عميقة تتمحور حول الضيق و الضجر والوجع و الاغتراب وسط هذه الوجوه التي لم تألفها مدينة القدس، و هذه السلوكيات التي غيرت نبضها، عبر تميم عن ذلك أحياناً بلغة مباشرة عفوية ك ترى كل ما لا تستطيع احتمالهُ، قانون الأعادي و أحياناً أخرى بمؤشرات لسانية موحية مثل : حاشيةً، وهامش، و حجاب واقعها السميك، فقانون سيد و مسود و فوق و تحت هو السائد في هذا الواقع الكئيب، الذي فرضه من تسللوا إلى

19 - محمود درويش: قصيدة في القدس، ديوان لا تعتذر

عمّا فعلت ص: 47-48

20 - نزار قباني قصيدة القدس(سابق).

18 - تميم البرغوثي، قصيدة في القدس .

يتجاوزوا جفاف اللغة التقريرية، وإبعاد شبحها عن ساحة الشعر.²¹

5- طغيان الجانب التراجيدي على قصائد القدس – لا سيما – التي أنتجت بعد النكسة، إذ تحولت إلى بكائيات تعبر عن انكماش مساحة الأمل و تقلص الأحلام التي سادت قبل النكسة.

6- أثبتت قصائد القدس إمكانية النجاح في إثارة الموضوعات و الاهتمامات دون اختزال الخصوصيات الجمالية (التصوير، الإيقاع، القناع...).

7- الوطن فكرة غافية، لا يوقظها سوى الشعراء بالتحنان و الغناء، و إذا كان الإنسان يرتبط شعوريا بالمكان الذي ينبت فيه، و تمتد فيه جذوره فإن توسيع دائرته ليشمل رقعة عريضة تتمثل فيها خواصه الطبيعية و البشرية و تعمق وعيه الفطري به، يعد نموذجا لصياغة المثال و التعلق به. و هي صناعة شعرية في صميمها حيث يوسع الإنسان عند ممارستها، أن يرى ذاته و ينشد أحلامه، و يشكل انتماءه للعالم الصغير، و هو لا يفعل كل ذلك إلا إذا تلبس بحالة شعرية كأن يصبو إلى مرابع لهوه و طفولته، أو يتوجع بتذكر ماضيه و معالمه.. و في كل ذلك ينشدون توليد صورة مثالية للوطن بالتوافق معه أو الخلاف فيه، و

و لا سبيل لها إلا قصادنا فتستجيب لنا و الوزن ينصاع

صفوة القول:

من خلال ما تقدم يمكننا تسجيل نتائج نجلها كما يأتي:

1- أهمية القدس في الوعي العربي خاصة و الإنساني عامة.

2- القدس تحمل دلالات نفسية و تاريخية و دينية تتنوع بتنوع الذات التي تتعاطى معها، و الأيديولوجيا التي تتبناها.

3- البنية الأسلوبية لقصائد القدس جاءت بسيطة في بنائها اللغوي، لكونها شكلت ترجمة تلقائية لمشاعر و حالات نفسية اشترك جميعها في الأسى و الألم، لهذا جاءت - رغم ذلك - أكثر صدقا و عمقا و أبلغ تأثير.

4- الحقيقة المجردة وحدها لا تكفي للتعبير عن تجربة الفنان، ولا يمكنها أن تستغرق انفعالاته ورؤياه، ولذلك يلجأ دوما إلى الاستعانة بالتراث وإحداث ما يسمى ب"التحويل الرمزي" "transformation symbolique". أن يعبر عن تجربته الخاصة موظفا في ذلك كل ما يستطيع الاستعانة به من عناصر التراث البشري، يثري به فكره الفني، ورؤيته الأدبية. «وهنا لن تصبح أدواته اللغوية إشارية تقريرية ذات بعد دلالي واحد، وإنما سوف تصبح كما أسماها "ريتشاردز" لغة مشخصة " Figuratif langage". ولولا عمليات التحويل الرمزي ما كان للشعراء أن

21 - حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي - قراءة موضوعاتية جمالية- منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2001، ص: 80

هي التي تحفز قسماته في ذاكرة الأجيال.²²

8- استغلت قصائد القدس لإثارة و معالجة قضية رئيسية وهي القضية الفلسطينية بكل تداعياتها الاجتماعية و السياسية و الدينية..إلخ.

9- تركز المشهد الشعري لا سيما في الأردن وفلسطين منذ منتصف القرن الماضي على موضوع رئيسي هو القضية الفلسطينية و تداعياتها على مختلف مناحي الحياة، حتى غدت جميع الموضوعات الأخرى قياسا بهذا الموضوع ثانوية و هامشية، و هذا لا يعني أن الشعر خلال هذه الفترة قد اقتصر على الهم الوطني و مقاومة الاحتلال، إنما طوع الموضوعات العاطفية و الاجتماعية و الفكرية ..إلخ و ربطها بشكل ما بالموضوع المركزي الذي لا يوجد أي مجال للابتعاد عنه لأنه يمثل واقعا يوميا صادما، ومشهدا حياتيا مؤلما.²³

22 - صلاح فضل :تحولات الشعرية العربية . دار الآداب، لبنان، ط1، 2002، ص: 55.

23 - أحمد الزعبي : أسلوبيات القصيدة المعاصرة، دار الشروق للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2007، ص: 30-29.